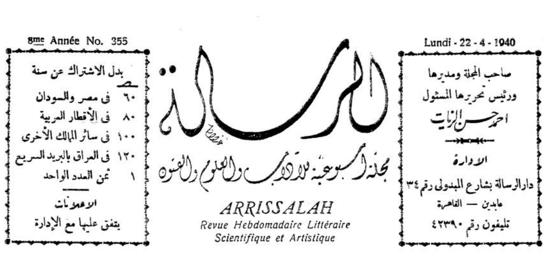


ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

النقابات الإسلامية

للأستاذ برنارد لويس

ترجمة الأستاذ عبد العزيز الدوري


8me Année No. 355

Lundi - 22 - 4 - 1940

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire

Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

مص	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٣٥٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٤ ربيع أول سنة ١٣٥٩ — الموافق ٢٢ أبريل سنة ١٩٤٠ » السنة الثامنة

النقابات الإسلامية

للأستاذ برنارد لويس

ترجمة الأستاذ عبد العزيز الدورى

أكثر الكتاب والمؤرخون في سرد الوقائع ، ووصف أبهة القصور وعظمة السلطان ، وجعلوا التاريخ سلسلة حوادث متفرقة متباينة ، وأغفلوا التيارات الاجتماعية التى كان لها أكبر الأثر في سير التاريخ ، يظهر هذا خاصة فى التاريخ الاسلامى . ثم تنبه بعض المستشرقين لذلك ، وحاول أن يسد بعض هذا النقص . ولدينا فى هذه الرسالة (النقابات الاسلامية) عرض عام لنتيجة البحوث عن أهل الصناعات والحرف فى الاسلام

وقد ترجمت هذه الرسالة لأنها تعطى القارئ العربى فكرة عن نظر بعض المستشرقين إلى بعض مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى التاريخ الاسلامى . وقد نشرت هذه الرسالة فى مجلة

Economic History Review, vol. VIII, No. 1937

ولكن النص العربى يحوى إضافات ومعلومات لم تنشر هناك ، وهى النتائج الأخيرة لأبحاث المؤلف عن الموضوع ؛ إذ تفضل باضافتها أخيراً . (ع . د)

إن طوائف أهل الصناعات والحرف هى من أهم ظواهر الحضارة الإسلامية فى القرون الوسطى .

يندر أن يجد الإنسان أثراً لما نسميه روحاً مدنية (نسبة إلى مدينة) ، أو تنظيما بلدياً (نسبة إلى بلدية) فى البلاد الإسلامية فقد كانت المدن الإسلامية فى القرون الوسطى وقتية الظهور على الأغلب ، تتمتع بازدهار تجارى أو ثقافى لمدة قرن أو نحو قرن ، ثم تتضاءل أو تختفى . وبهذا ندر وجود طوائف بلدية معينة ، أو وحدات متحضرة دائمة . إذ أن روح التكتل والتنظيم المحلى التى كان لها أهمية كبرى فى أوربا فى القرون الوسطى ، منعت من الظهور فى الحقل السياسى بتأثير الأوضاع السياسية المضطربة فى البلاد الإسلامية ، وسيقت تلك الروح لأن تجد لها منفذاً فى الحياة الاقتصادية . وهكذا نجد فى أصناف الحرف فى الإسلام ما يساوى تلك الحياة المحلية القومية التى هى من أبرز مظاهر تاريخ أوربا فى القرون الوسطى .

كانت النقابة مهمة فى الحياة الإسلامية لدرجة أن تخطيط المدينة — التى كانت تبنى على أساس سوق تجارية — كان يقرر فى كثير من الأحيان حسب حاجات أصحاب الحرف . فنرى أن المدن الإسلامية من مراكش إلى جاوة ظهرت بتماثل عجيب متمركزة حول ثلاث أو أربع نقاط أساسية

فأول نقطة ثابتة هى سوق الصرافين ، وهو مركز هام دائماً فى النظام الاقتصادى الثنائى الأساس فى العملة ، كما كانت الحال فى البلاد الإسلامية فى القرون الوسطى

ونجد حواليه جامعى المكوس ، ثم دار الضرب (إن وجدت هنالك واحدة) ، ثم سوق المزايدة ، ثم المحتسب وهو ملاحظ الأسواق . وهنا نجد الحمالين أيضاً

والمركز الثانى هو القيصرية — وهى بناية محكمة تخزن فيها البضائع والنفائس الأجنبية ويحتمل أن يكون الاسم بيزنطى الأصل . والمركز الثالث هو سوق الغزل — حيث يأتى النساء لبيع إنتاجهن اليدوى . وهنا نرى المتعاملين بالحاجات التى يشتريها النساء كالقصابين والخبازين وبائعى الخضر الخ ...

والمركز الرابع هو الجامعة أو المدرسة . وهى ملحقة عادة بمسجد ، وفيها يكوّن الطلبة والأساتذة نظام نقابة حقيقية . ويشتغل أهل الحرف حول هذه المراكز الأربعة ، كل صنف فى سوقه الخاص . ويلاحظ من هذا أن توزيع النقابات يتبع هذا النظام فى المدن المختلفة حيث توجد هذه المراكز الأربعة .

دعنا الآن ننظر فى منشأ هذه النقابات ، وهو بحث يلاحظ فيه أنه لم يتقدم بالقدر الكافى

هناك رأى يقول بأن هذه النقابات هى متممة للنقابات البيزنطية التى سبقتها ، إذ كانت توجد نقابات متعددة فى المقاطعات البيزنطية كسوريا ومصر حتى القرن السابع الميلادى . وليس من المحتمل أنه قضى عليها من قبل الفاتحين العرب الذين كانت سياستهم كما نعلم ترك الهيئات الإدارية والاقتصادية التى خلقها البيزنطيون كما كانت عليه تقريباً . ومع ذلك لا نرى أية إشارة إلى وجود نقابات إسلامية قبل القرن العاشر الميلادى ؛ أى بعد ثلاثة قرون (من بدء الفتح) ، كما أن هذه النقابات كانت من نوع يختلف تماماً عن النقابات الموجودة قبل الفتح الإسلامى . وليس لدينا إلا ملاحظات قصيرة متقطعة (عن النقابات) خلال

هذه الفترة وأولها جاءة في تاريخ ابن عذارى المراكشي إذ يقول عن والي أفريقية والمغرب سنة ٧٧٠ م (١٥٥هـ) : « وكان يزيد (بن حاتم) هذا حسن السيرة فقدم أفريقية وأصلحها ورتب أسواق القيروان وجعل كل صناعة في مكانها[١] »

ومع أن الكتاب الذي يحتوي هذا النص قد كتب في القرن العاشر فلا مانع من قبول صحة هـذا الخبر وهو خبر طريف في ذاته ، إذ أنه يظهر أن الأمير العربي وضع العمال والأسواق في القيروان ، وهي مدينة جديدة بناها العرب الفاتحون ، تحت نفس الإدارة والمراقبة كما كان يفعل الحاكم البيزنطي في المدن المجاورة . ولـكن يظهر لي أن استنتاج وجود نقابات عربية في القيروان من هذه العبارة ، كما فعـل « فون كريمر Von Kremer[٢] » و « أتجر Atger[٣] » غـير مؤيد بالبيانات الموجودة

وفي نهاية القرن التاسع الميلادي نجد عدداً لا بأس به من المصادر يشير إلى وجود شيء من نظام التكتل بين التجار وأصحاب الحرف . لـكن هذه الأصناف لم تصل بعد إلى درجة يصح اعتبارها كنموذج للأصناف الإسلامية . وإنمـا هي مجرد تنظيم عام وضبط للأسواق والحرف من النوع الموصوف في المصادر البيزنطية المعاصرة[٤] يمكن أن نستنتج من هذه الإشارات أن الأمراء المسلمين احتفظوا بأشكال السـيطرة العامة التي كانت للإدارة البيزنطية على الحرف — على الأقل في معاملاتهم مع الصناع من غير العرب وغير المسلمين — وربما امتد ذلك حتى إلى المسلمين أنفسهم . وعلى كل حال فإننا نجد في القرن التالي تطوراً ظاهراً فيما يسمى بالأصناف الإسلامية ، وحينئذ نجدها من نوع لا يصح تعليله بالتأثير أو التراث البيزنطي . وتوجد نظرية أخرى بجانب هذه النظرية يتطلب فحصها الانتقال إلى موضوع قد يجهله غير المستشرقين

بدأ المستشرقون في السنوات الأخيرة يتأكدون أكثر فأكثر أن المذهب السني في العصر الأول للخلافة لم يكن أبداً

(١) كتاب ـ البيان المغرب في حلى المغرب ـ لابن عذارى المراكشي طبعة ليدن سنة ١٨٤٨ جـ١ ص٦٨

(٢) Von Kremer - Kulturgeschichte des Orients, Vienna 1877, ii, p. 187 ص ٧

(٣) Atger - Les corporatims Tunisiennes, Paris, 1909

(٤) راجع Von Kremer و Metz - Renaisiamce of Islam

مذهب الطبقات العامة ، وكلما ازدادت دراسة الباحث في الأدب الإسلامي في القرون الوسطى ازداد الاتضاح من أن المذهب السني كان ينظر إليه في كل محل كدين طبقة مسيطرة ، دين الدولة وميزة الأرستقراطية العربيـة الحاكمة[١] وقد كانت هذه نظرية الفاتحين أنفسهم في الأدوار الإسلامية الأولى ، ولقد كانت الأكثرية الساحقة بين رعايا الخليفة — لقرون عديدة بعد الفتح الإسلامي — غير سنية تكره المذهب السني كرمز لسطوة طبقة أجنبية حاكمة تتمتع بامتيازات خاصة

ومع ذلك كان الشعور الديني قوياً بين الطبقات العامة ، وقد تجلى هذا الشعور بظهور سلسلة فرق متزندقة منشقة منذ القرن الثامن الميلادي حتى الفتح المغولي ، وتتصف جميع هذه الفرق تقريباً بفلسفة خاصة Symenetistic تحتوي عناصر مقتبسة من فرق سبقت العصر الإسلامي كالأفلاطونية الحديثة والمـانوية والمزدكية وبفلسفة اجتماعية ثورية فيها عامل المساواة بين الأفراد وبتنظيم سري يشبه النظام الماسوني ، وهي عادة من أفراد من مختلف الطوائف Interconfessional مع درجات من التنشيء والتهذيب ، ونجد مثلاً عصرياً لنجاح هذه الفرق وفشل المذهب السني في حالة الهولنديين في الهند الصينية (أندونيسيا) والفرنسيين في أفريقيا الغربية ، حيث على الرغم من قواها المتفوقة نجد البعثات المسيحية تتقدم بين السكان الوطنيين بنجاح أقل من نجاح الدعوة الإسلامية . فهنا أيضاً يرى الزنجي أو الإندونوسي أن المسيحية متصلة بحكم أجنبي ، فيفضل أن يكون مسلماً من الدرجة الأولى على أن يكون مسيحياً من الدرجة الثانية

بلغت هذه الحركات الدينية أوجها في القرنين العاشر والحادي عشر . فقد كانا مرحلتي تطور صناعي وتكتل حضري . فظهور نظام راق للبنوك مركزها بغداد ، تغطي فروعها الإمبراطورية ، ساعد على تجهيز الدولة بالنقود ، وعلى حفظ النقود بصورة عامة أساساً للاقتصاد . وقد أثر هذا على النمو الصناعي ، فأنتج تمركزاً في رأس

(١) انظر Von Vloten - Recherches sur la Bomènation Arabe Amesterdam, 1849 أنظر أيضاً Becher -: Islam Léudien Bartold - musulman Culture, Calcutta, et 34. p. 72-6, 100-102 ومما يسترعي النظر أن التقسيم بين السنة والمنشقين herébcs لا يناسب تماماً التقسيم بين العرب وغير العرب . فالطبقة الحاكمة في فارس من عهد الدولة الساسانية انضمت إلى المذهب السني بينما نجد الطبقات الفقيرة من العرب في سورية والعراق تأثرت بالمانوية وبزندقات أخرى

المال والعمل[1] كما ولد النمو السريع فى رأس المال حسب المنتظر مشاكل اجتماعية خطيرة . إذ نقرأ عن سلسلة اضطرابات خطيرة فى بغداد ، وعن ثورة الزنج فى أسفل العراق فى القرن التاسع ، ثم عن ظهور فرق دينية باستمرار . وفى هذا العصر زلزل العالم الإسلامى بحركة ثورية سياسية اقتصادية ثقافية فى نفس الوقت أنتجت الخلافة الفاطمية فى القاهرة . فالحركة الاسماعيلية (أو القرمطية) — كما تسمى هذه الحركة تبعاً لاسم أهم شعبها وأكثرها أهمية — تميزت بآراء حرة عجيبة . إذ وجهت دعوتها إلى مختلف الفرق الإسلامية — من سنة وشيعة — ومختلف الأديان من يهود ونصارى ، وزرادشتية على السواء باسم الحركة الثقافية والعدالة الاجتماعية ، ويصعب البت فى فلسفتها الحقيقية لأن مصادرنا إما سنية فتكون شديدة العداء متحيزة، أو اسماعيلية تنتمى إلى عصر متأخر عند ما طرأ على المبادئ الأولى تعديل واسع . فمثلاً نرى أن فخر الدين الرازى وصم الغزالى والشهرستانى والبغدادى بالتعصب وقلة فهمهم لآراء خصومهم . إذ روى عن حديث له مع المسعودى عن الكتب قال : « فقد ذكر المسعودى كثيراً منها إلى أن ذكر كتاب الملل والنحل للشهرستانى . فقلت: نعم، إنه كتاب حكى فيه مذاهب أهل العلم بزعمه إلا أنه غير معتمد عليه ، لأنه نقل المذاهب الإسلامية من الكتاب المسمى بالفرق بين الفرق ، من تصانيف الأستاذ أبى منصور البغدادى ، وهذا الأستاذ كان شديد التعصب على المخالفين ، فلا يكاد ينقل مذهبهم على الوجه الصحيح[2] ، وقد أدرك الغزالى الخاصة الاجتماعية للمذاهب المنشقة ، وقال فى الكلام عن الباطنية : « فاستبان أن ما ذكروه تلبيس بعيد عن التحقيق وأن العامى المنخدع به فى غاية العمى ، لأنهم يلبسون على العوام » ثم قال أيضاً عنهم : « فما هولوا من خطر الخطأ مستحقر فى نفسه عند المحصلين من أهل الدين ، وإنما يعظم به الأمر على العوام الغافلين عن أسرار الشرع » . وعند الكلام على الدعاة الباطنيين قال : « وهؤلاء الدعاة تواطئوا على هذا الاختراع ليتوصلوا به

(١) أنظر كتاب Fixhil, The Ougui of bauhingui Medieual, M ets. Islam. J. R. A. S. 1931 p. 339 — 561 وكتاب آخر لنفس المؤلف Jems in II Social life of Medural Islam, 1937

(٢) لاحظ ملحق مناظرات فخر الدين الرازى ص ٢٦٢ ، القاهرة سنة ١٩٣٢

إلى استتباع العوام واستباحة أموالهم فيتوصلون به إلى آمالهم »[1]

ومن الواضح على كل حال أن الحركة الإسماعيلية كانت مبنية على نوع من التفكير الحر تعترف بقرابة الأديان جميعاً وتنبذ الشريعة الإسلامية ، وتستند إلى مبدأ من العدل والتسامح والمساواة التامة[2] ؛ وبطريقة حاذقة من التفسير تعرف بالتأويل أسندت هذه المبادئ بنصوص من القرآن والكتب الدينية الإسلامية وكذا عوملت كتب اليهود والنصارى المقدسة بنفس الطريقة ...

وقد ذكر عبد الله الإسماعيلى فى عرضه للأسس الاجتماعية للاسلام أنه « ما وجه ذلك إلا أن صاحبهم حرم عليهم الطيبات وخوفهم بغائب لا يعقل وهو الإله الذى يزعمونه وأخبرهم بكون ما لا يرونه أبداً من البعث من القبور والحساب والجنة والنار حتى استعبدهم بذلك عاجلاً ، وجعلهم له فى حياته ولذريته بعد وفاته خولا ، واستباح بذلك أموالهم بقوله : لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى (الشورى ٢٣) فكان أمره معهم نقداً وأمرهم معه نسيئة ، وقد استعجل منهم بذل أرواحهم وأموالهم على انتظار موعود لا يكون . وهل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها ؟ وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب فى الصلاة والصيام والجهاد والحج[3] »

روى هذا النص مؤلف سنى توفى سنة ١٠٣٧ ، كمثل من زيغ القرامطة وشك بعض الباحثين فى صحته . لكن النص وإن كان ركيك التعبير ، فإنه لا يوجد فيه غير الحط من شخصية الرسول ، ولا يمكن تأييده بنصوص من الكتب الاسماعيلية القديمة القليلة أو المتأخرة التى لدينا .

« يتبع » عبد العزيز الدورى

(١) ص ٥ كتاب فضائح الباطنية للغزالى نشره كولد زيهر طبعة ليدن ١٩١٩

(٢) وحتى الوقت الحاضر نجد أهل الحق أو ــ أهل حق ــ وهم بقية إحدى هذه الفرق تسكن فى بعض قرى شمال شرقى إيران تحتفظ بشيء من هذه الصفات فتحتوى إحدى قصائد التعزية عندهم الوعد بأن سيعاقب السلاطين . ويلاحظ البروفسور فينورسكى بصورة خاصة الميزة الشعبية Popular لهذا الدين إذ يقول إنه « معتنق بصورة خاصة من قبل الطبقات الوضيعة من بدو وقرويين ودراويش وسكان المحلات الفقيرة . . الخ) لاحظ ملحق دائرة المعارف الاسلامية (مادة ــ أهل حق ــ)

(٣) ص ٥ البغدادى : الفرق بين الفرق . القاهرة ١٩١٠ ص ٢٨١ و ٢٨٢



8me Année No. 356

Lundi - 29 - 4 - 1940

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٣٥٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢١ ربيع أول سنة ١٣٥٩ — الموافق ٢٩ أبريل سنة ١٩٤٠ » السنة الثامنة

النقابات الإســـلامية

للأستاذ برنارد لويس

ترجمة الأستاذ عبد العزيز الدوري

— ٢ —

كانت الحركة الإسماعيلية قوة تهذيبية عظيمة، اختصت بإنشاء مدارس وجامعات أشهرها جامعة الأزهر في القاهرة وبتصنيف دائرة معارف واسعة تذكرنا بحركة التأليف الأنسكلوبيدية فى فرنسا فى القرن الثامن عشر. وفى هذه الموسوعة المسماة «رسائل إخوان الصفا» نجد تقريباً كل الآراء التقدمية فى ذلك العصر وإشارات قليلة ثمينة إلى نظم تشكيل الجمعيات ، ومنها نعلم بوجود جمعيات لإخوان الصفا فى جميع أنحاء الإمبراطورية تعمل لبث آرائها بين كل طبقات الشعب وخاصة بين الصناع وأصحاب الحرف[1]

يرى الأستاذ ماسنيون أن الحركة الإسماعيلية هى التى أوجدت الطوائف الإسلامية وأعطتها ميزتها الخاصة التى حافظت عليها حتى الآن ، إذ يقول : إن الطوائف الإسلامية كانت قبل كل شيء سلاحاً شهره الدعاة الاسماعيليون فى كفاحهم لضم الطبقات العاملة فى العالم الإسلامى لتكوين قوة منهم تستطيع قلب الخلافة وكل ما تمثله ؛ وللتوصل إلى استغلال أصحاب الحرف أوجدوا الطوائف وسيطروا عليها . وهكذا أصبحت لها خاصيتان : (أولاً) كونها أصنافاً للحرف و (ثانياً) كونهـا مؤسسات أخوية إسماعيلية[2]

دعنا نفحص الدلائل التى تؤيد هـذه النظرية . يجب قبل كل شيء ملاحظة اهتمام الاسماعيلية العظيم بطبقات أصحاب الحرف فقد خصص فصل كامل فى رسائل إخوان الصفا للنظر فى الحرف

(١) رسائل إخوان الصفا . القاهرة ج ٤ ص ٢١٤

(٢) لم يصل الأستاذ ماسنيون مع الأسف بنظريته إلي النهاية إذ أنه يقول إن المصادر لا تزال غير كافية. La Passion d'al-Hallaj Paris. 1922, Vol P. 83, 399, 410 لاحظ الأنسكلوبيديا الاسلامية . مادة نقابة . صنف . شد

اليدوية وتبويبها وتصنيفها ونبلها . وتهمنا بصورة خاصة الفقرة التى قسم فيها الذين لا يمتهنون الحرف كما يلي : قسم لا يمتهن الحرف كبرياء وأنفة، وقسم لزهده كالأنبياء، وقسم يقلدها لكسله وقلة نشاطه كالشحاذين وغير الماهرين من الصناع أو لتراخ فى الطبيعة وضعف فى العقل كالنساء وما يشبههن من الرجال .

فالإشادة المقصودة بأصحاب الحرف بينة ، والأمثلة الأخرى على اهتمام الاسماعيلية بالحرف كثيرة . وهناك عامل ثان وهو الفرق بين وضعية الطوائف فى عهد الفاطميين وبينها فى عهود الدول السنية. إذ كانت الطوائف تحت الحكم السنى مضطهدة وخاضعة لقيود لاتعد، ومحرومة من حقوق قانونية . وكان هناك موظف حكومى يدعى المحتسب مهمته الأساسية مراقبة الطوائف وقتل أية محاولة للعمل المستقل فيها منذ المبدأ ، ولدينا أدب ممتع ضد هذه الطوائف يظهر قلة ثقة الدول السنية بها ، ويظهر ذلك خاصة فى كتب الحسبة أى الكتب التى كتبت لفائدة المحتسب عن خطر أهل الصنائع وعن أحسن الطرق للسيطرة عليهم ، وقد وصلتنا هذه الكتب من محلات متباينة كالقاهرة وحلب ومالقة

نلاحظ الفرق فى وضعية الأصناف تحت حكم الفاطميين ، إذ كانت تتمتع برخاء عظيم . فقد كانت معترفاً بها من قبل الدولة، ويظهر أنها كانت تتمتع بامتيازات كثيرة ، وأنها لعبت دوراً هاماً فى النشاط التجارى الذى حصل فى العهد الفاطمى ، فى هذا العصر نشأت نقابة الأساتذة والطلاب التى تؤلف الجامعة العظيمة أى الأزهر الذى مر ذكره . ثم قضى صلاح الدين على الخلافة الفاطمية ١١٧١ م ، وأعيدت مصر إلى الحكم السنى وفى الحال جردت الطوائف من أكثر حقوقها وامتيازاتها وأخضعت لنظارة دقيقة

وهنالك عامل ثالث يؤيد هـذه النظرية ، وهو الأثر القوى الذى تركه النفوذ الإسماعيلى فى الطوائف بعد اختفاء الدعوة الإسماعيلية بزمن طويل . إذ يقول الأستاذ كوبريلى[1] إن الطوائف فى أناضوليا فى القرن الثالث عشر كانت لا تزال تحتفظ بنظام متدرج فى التنشيء يشبه بدقة النظام الإسماعيلى ، كما أن

(١) لاحظ Kôprülü — Les ourgines de l'Impire Otomn, Paris, 1935 P. 711.

دراسة أصناف مختلفة فى أنحاء مختلفة من العالم الإسلامى أظهرت آثاراً مماثلة . وتظهر رسالة لأحد الأصناف المصرية كتبت فى القرن السادس عشر — كتاب الذخائر والتحف فى بير الصنائع والحرف — كرهاً شديداً للحكم العثمانى الذى يعتبر سبب تعاسة رجال الأصناف ، ونجد فى الرسالة فكرة انتظار المهدى لينقذ البؤساء

وهكذا نجد الآثار الإسماعيلية التى هى ضد التعاليم السنية تستمر بين الأصناف ، ونلاحظ العبارة التالية فى هذه الرسالة « إن العلم يمطلونه وبعد أن تذهب دولة العثمان يطلبونه ويقوم سيدى محمد المهدى لكل حرفة لها صدر فى الصحابة ويأمرهم باتباع الطريق فيدخلون السياج ويسألون كل نقيب عارف بصير الأمر له محتاج حتى يقوم الدين ويصلح اليقين ويبطل العقد والثلاث ويضرب أعناق النقباء الجاهلين والمشايخ المتلبسين »

وأهم من ذلك وجود أفراد من طوائف مختلفة بين أفراد الأصناف ، وهى خاصة تميز هذه الأصناف بدقة عن النقابات الأوربية، إذ يقبل المسلم والمسيحى واليهودى تحت نفس الشروط فيها ، حتى إن بعضها يغلب فيها غير المسلمين كأصناف الأطباء والمتعاملين بالمعادن الثمينة ...الخ. وهذا يظهر الرابطة الدقيقة بين الأصناف والدعوة الاسماعيلية

يتضح من كل هذا أن الحركة الاسماعيلية لعبت دوراً هاماً فى تطور الأصناف الإسلامية ، وأنها تركت أثراً عميقاً خالداً فى حياتها الداخلية ، وإن لم يوجد برهان واضح يبين أن الحركة الاسماعيلية أوجدت الأصناف[١] ، ولكن الأكثر احتمالاً هو أن الاسماعيلية أعطت مصدراً جديداً ومعنى جديداً لتشكيلات كانت موجودة من قبل . فهل كانت هذه التشكيلات من أصل بيزنطى ، أو كانت تقليداً لمؤسسات بيزنطية معاصرة خارج حدود الامبراطورية الإسلامية ؟ هذا ما يستحيل البت فيه . فأثار تشكيلات الحرف فى الفترة التى سبقت الحركة الاسماعيلية والعامل الإغريقى العظيم فى الأفكار يؤيد تفسيراً من هذا القبيل

وهكذا تكون النقابات الإسلامية عبارة عن نظام يتركب من هيكل موروث من العالم اليونانى الرومانى وسلسلة من الآراء جاءت على الأخص من الحضارة الفارسية الآرامية وأنتجت حركة إسلامية إغريقية تهذيبية فلسفية تكتلية (على هيئة جمعيات) فى نفس الوقت

وفى أواسط القرن الثالث عشر حدثت فاجعة الفتح المغولى الذى حطم الخلافة وأخضع المسلمين من سنيين وغيرهم على السواء إلى سيطرة شعب أجنبى كافر ، وأفضى إلى طمس التمييز الاجتماعى بين الاثنين « السنة وغير السنة » وسهل نوعاً ما اعتناق الجماهير للمذهب السنى . وباختفاء الحركة الاسماعيلية تحرج مركز الأصناف فى المجتمع السنى ، إذ بقيت بعض الصعوبات ، فأصحاب الحرف بقوا غير آمنين فى نير الطبقات الحاكمة فى الدولة . وربطوا أنفسهم بميول دينية هى وإن لم تكن خارجة عن الدين لم تكن دائماً فوق الشك ، وهذا هو التصوف، فإلى زمن قريب كانت تصدر بعض التهم من علماء السنة ضد الأصناف كالأحكام التى أصدرها الفقيه السورى العظيم ابن تيمية، أو التى أصدرها الشيخ العثمانى (منيرى بلغرادى) فى القرن السابع عشر . وعلى كل فبالرغم من كل هذا العداء كانت حالة الأصناف فى الفترة التى تلت الفتح المغولى متوطدة، واستمرت كذلك حتى حركة الإصلاح التركى فى القرن التاسع عشر التى انتهجت خطة أدت إلى انحطاط الأصناف بصورة عامة . وترجع أكثر الوثائق وكل الأخبار التى لدينا عن النظام الداخلى للأصناف إلى الفترة التى تلت العهد المغولى

وقبل النظر فى النظام الداخلى يجدر بنا أن نفحص مشكلة هامة فى تاريخ الأصناف الإسلامية . فحوالى نفس الوقت الذى نجد فيه الأصناف تختلط بطرائق الدراويش والصوفية نجدها على اتصال أشد بنظام جديد وهو الفتوة . أما أصل حركة الفتوة فغامض جداً ، وليس هذا بمحل البحث عن ذلك . ويكفى القول بأن تشكيلات الفتوة انتشرت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر فى جميع البلاد الإسلامية . وجمعية الفتوة هى مجموعة شبان (فتيان) يربطهم قانون أو دستور دينى وأخلاقى يحتوى على واجبات وشعائر منظمة . فهم مسئولون عن ممارسة بعض الفضائل والقيام بخدمة عسكرية لخير الإسلام . ويظهر من هذا

(١) لهذا الحد قبلت نظرية ماسنيون من قبل (كوبريلى) و (كوردلفسكى) . أما (تشنر) فيؤجل البت لأن البحث لم يتم .

أن الفتوة تشكل نظاماً إسلامياً يوازى الفروسية عند الأوربيين حتى أن فون همر Von Hammer ذهب إلى أن أصل الفروسية الأوروبية إسلامى[١]

وفى الفترة التى تلت الفتح المغولى مباشرة نجد الفتوة تميل أكثر فأكثر إلى الاتصال بالطرائق الصوفية وبأصناف الحرف بواسطة رابطة العضوية (أى الانتماء إليها فى نفس الوقت) . بدأ هذا التطور فى الأناضول ، وانتشر بسرعة فى أنحاء العالم الإسلامى ، ولم يمض زمن طويل حتى أصبحت كلمتا صنف وفتوة ذاتى مدلول واحد . أما كيف بدأ هذا الامتزاج ، وعلاقة هذه التشكيلات المختلفة ، فأمر غامض لم يوضح بصورة كافية حتى الآن[٢]

يلاحظ تشنر Taeschner ثلاثة أدوار فى تاريخ الفتوة ، وهى ثلاث خطوات لانحلال اجتماعى مطرد : فيقول إن حركة الفتوة بدأت كحركة فروسية أرستقراطية ، ثم تحولت فصارت حركة الطبقة المتوسطة فى القرن الثالث عشر ، وأخيراً انحطت فى القرن الخامس عشر إلى أكثر من ذلك وأصبحت حركة العوام . وهكذا اندمج الفتيان فى أصناف الحرف . ومن جهة أخرى يقول تورننج أن الصوفيين وأصحاب الحرف قلدوا جمعيات الفتوة مقتبسين شعائرها ومثلها العليا وأخيراً اسمها . وأكثر هذه التعليلات إقناعاً هو تعليل (كوردلفسكى) الذى يتفق مع كوبرولو[٣] على أن زمن اندماج مجموعات الفتوة بالأصناف هو فى القرن الثالث عشر فى الأناضول، ويربط ذلك بنظام هام هو نظام (أخيان روم) أو (أخوة الأناضول) . فقد ظهرت أخوة فى أناضوليا لأول مرة فى السنوات التى تلت الفتح المغولى مباشرة ، إذ كانت الفترة فترة فوضى واضطراب عام ؛ فالمغول الذين دحروا الدولة السلجوقية عجزوا عن التعويض عنها، وبذا اضطربت الإدارة. وفى هذا الدور الحرج تظهر الأخوة كمؤسسة قومية واسعة لها الرغبة والقدرة على التنظيم .

(يتبع)

عبد العزيز الدورى

(١) لاحظ Von Hammer : Sur La Chevalué des Arabes, J. A. 1899, P .5

(٢) لاحظ Tœscher—Die Islamische Futuwwotbündr. Z. D. M. G. 1933, P. 6

(٣) كوبرولو Les ourgines 76 - 8, 110 — 112

من شجو الربيع

عينـــاكِ . . . !

للأستاذ محمود حسن اسماعيل

عَيْنَاكِ لِى قَبَسَانِ فِى ... زَمَنِى الْمُحَيِّرِ هَادِيَانْ
وَشُعَاعَتَانِ مِنَ الطَّهَا ... رَةِ وَالْقَدَاسَةِ وَالْحَنَانْ
وَسَكِينَتَانِ بِوَاحَةٍ سَجْوَاءَ ... عَذْرَاءِ الْجِنَانْ
سِرُّ الْإِلَهِ بِهَا خَفِىُّ ... الْغَيْبِ مَعْصُومُ اللِّسَانْ
أَشْجَتْ خَيَالِىَ مِنْهُمَا ... فِى وَحْدَتِى أُنْشُودَتَانْ
تَتَهَادَلَانِ عَلَى رَبَابٍ ... لَمْ تُلَامِسْهُ بَنَانْ
عَيْنَاكِ لَوْ تَدْرِينَ ... فِى صَحْرَاءِ عُمْرِىَ وَاحَتَانْ
وَبُحَيْرَتَانِ بِعَالَمٍ فَوْ ... قَ الْغُيُوبِ رَهِيبَتَانْ
بِالْحُبِّ وَالْأَنْغَامِ وَالْـ ... ـخَمْرِ الْمُقَدَّسِ تَخْفُقَانْ
اللهُ أَكْبَرُ ! بَلْ هُمَا ... مِنْ نَاىِ رَبِّكِ هَمْسَتَانْ
وَهُمَا لِرُوحِى فِى السَّنَا الْـ ... ـبَاقِى لَدَيْكِ عِبَادَتَانْ
بَلْ نَشْوَتَانِ ، وَسَجْدَتَا ... نِ ، وَفِتْنَتَانِ ، وَتَوْبَتَانْ
وَهُمَا لِحُبِّىَ لَوْ عَلِمْـ ... ـتِ مِنَ الضِّيَاءِ تَمِيمَتَانْ
تَقِيَانِ قَلْبِىَ مِنْ ... أَذَى الدُّنْيَا وَشَعْوَذَةِ الزَّمَانْ
... ...
عَيْنَاكِ عَبْدُ سَنَاهُمَا ... يَفْنَى وَلَا ...
... لَا تَدْرِيَانْ !

(ديوان المعارف) محمود حسن اسماعيل



Lundi - 6 - 5 - 1940

8me Année No. 357

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٣٥٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٨ ربيع أول سنة ١٣٥٩ — الموافق ٦ مايو سنة ١٩٤٠ » السنة الثامنة

النقابات الإسلامية

للأستاذ برنارد لويس

ترجمة الأستاذ عبد العزيز الدوري

— ٣ —

انتشرت حركة الأخوة بسرعة فى المدن والأرياف - بالتكتل والكرم - كدستورهم ، وطبقة أصحاب الحرف كأساس اجتماعى لهم ، وقتل الطغاة وصنائعهم كواجب من واجباتهم ، فكانت حركة اجتماعية سياسية دينية عسكرية فى نفس الوقت . وقد لاحظ أحد الزائرين فى عهد متقدم أن أعضاء كل جمعية من جمعيات الأخوة كانوا أصحاب حرفة واحدة . ولا بد من أن الاتحاد التام لجميات الأخوة مع الطوائف قد حصل فى زمن متقدم ، وربما كان ذلك فى بدء حركة الأخوة . كما أن حركة الأخوة لم تكن مجرد تنظيم لأصحاب حرفة واحدة ، وإنما جعلوا واجبهم حفظ العدل ووقف الظالم عند حده ، واتباع قانون أخلاق ودينى ، وتنفيذ واجباتهم العسكرية إن دعت الحاجة للدفاع عن حقوقهم . ولم تكن العضوية مقصورة على المسلمين فقط إذ نجد عدد المسيحيين عظيما جدا فى طور متأخر

وهكذا تحقق فى حركة الأخوة لأول مرة اتحاد الطوائف والفتوة والطرائق الدينية . وقد أتى كوردلفسكى ببينة ممتعة تؤيد تأثر الطوائف بالنفوذ الإسماعيلى إذ يلاحظ الأستاذ أثراً قوياً لآراء ابتداعية (لا توافق قواعد الإسلام) عند الأخوة ، ويرجع أصل ذلك إلى إخوان الصفا . ويذهب (كوبرولو) إلى أبعد من ذلك ويؤكد أن الأخوة كانوا فى الحقيقة متطرفين ملحدين فى بدعتهم وخروجهم وأنهم من طراز القرامطة أنفسهم [1]

ولدينا وصف هام للأخوة فى الأناضول ورد إلينا فى رحلة ابن بطوطة من أهالى طنجة زار الأناضول فى القرن الخامس عشر الميلادى [2]

---

(١) تجب ملاحظة أن (تشنر) ينكر أى أثر إسماعيلى فى حركة الأخوة ويعتبرهم سنية قبل كل شىء

(٢) ابن بطوطة طبعة باريس ١٨٥٤ ج٢ ص ٢٦٠ وما بعدها . خص (تشنر Taeschner) مخطوطة أخوة ممتعة ترجع إلى القرن الرابع عشر تنسب إلى يحيى بن (خليل) . وفى هذه الرسالة نلاحظ ثلاث درجات يكبت فتى، آخى، شيخ؛ والدرجة الأخيرة نظرية أكثر منها عملية، ووظيفة=

وبظهور السلطة العثمانية وتوحيدها فقدت الأخوة كثيراً من سلطتهم ونفوذهم ، وبعد مقاومة عنيفة غير ناجحة اضطروا إلى التخلى عن مهمتهم السياسية والعسكرية ، ولكنهم لم ينحطوا أبداً إلى درجة أصحاب حرف عادية فقد استمرت بينهم روح العصر الأول . وحافظت الطوائف حتى القرن العشرين على حياة روحية داخلية وقانون أخلاق

وامتزجت نظم الطوائف والفتوة والأخوة فى الأناضول بسرعة وتم ذلك فى كل البلاد الإسلامية المتوسطة (مركزاً) فى القرن الخامس عشر . وقد جاءت معظم وثائقنا عن النظام الداخلى لهذه الطوائف بوساطة طوائف الفتوة . فكان لكل طائفة قانون يحتوى على قواعد وعادات وشعائر يتلى شفهيا عادة . وكان هذا القانون يعرف بالدستور (كلمة فارسية معناها : إذن . ومؤخراً . نظام) وكانت تكتب هذه القوانين فى بعض الأحيان وقد وصلنا عدد كبير من هذه الكراريس ترجع إلى القرن الرابع عشر ومابعده . ويعتبر كتاب الفتوة أو (فتوت نامه) كما تسمى هذه الكراريس بالعربية والتركية على التوالى مع عدد من كتب الرحلات والجغرافيا المصدر الأساسى لمعلوماتنا [1] وتتألف جميع هذه الكتب تقريباً حسب خطة واحدة من ثلاثة أقسام . القسم الأول يحوى أساطير تتعلق بأصل الحرفة ومناصرات مؤسسها الذى تنتمى إليه ، وهى تعطى عادة حلقة من التنشىء مثلاً : الله علم جبريل، جبريل علم محمد، محمد علم عليًّا، علىّ علم سلمان الفارسى، وسلمان علم الأبيار (وهم حماة أصحاب الحرف حسب تقاليدهم) والأبيار علموا الفروع (وهم الحماة الثانويون للشعب المختلفة لأصحاب الحرفة الواحدة) . وهؤلاء الفروع علموا بدورهم رؤساء الأصناف العاديين . وهذه الأساطير تظهر عادة تأثيراً قوياً للاسماعيلية والصوفية . القسم الثانى : يحوى عادة قائمة بأسماء الأبيار والفروع لمختلف الحرف ، وهؤلاء عادة أشخاص اقتبسوا من التوراة والقرآن ومن التاريخ الإسلامى ، وهكذا نجد آدم حامى الفلاحين والخبازين ، وشيث حامى الحياكة والخياطين، ونوح حامى النجارين، وداوود حامى الحدادين والصباغ وابراهيم حامى

=الآخى أن يدعو ويرأس الاجتماعات الأسبوعية وتعليم وتنشىء المبتدئين. وكان اليكتر (فتيان) ينقسمون إلى صنفين: قولى وسيفى. ومن الصنف الثانى يعين الأخية الجدد فى حالة الفراغ . وهناك موظف دائم يدعى النقيب أو رئيس الحفلات

(١) ص١٠ لا تزال أكثر هذه الكراريس باستثناء اثنين أو ثلاثة خطية موزعة فى أوربا وآسيا فى المكتبات العامة والخاصة للنظرة العامة راجع : Thorning, Breitage p. 15-54

الطباخين، واسماعيل حاجي صناع الأسلحة . والقسم الثالث يحوى النماثم لتثقيف المبتدئين ، والأسئلة فيه تظاهر اتصالاً قوياً بآراء الدراويش. ويمكننا من هذه الكراريس (كتب الفتوة) أن نصور نظام الطوائف لحد ما . ويحسن بنا أن نتذكر فى عملنا هذا أن وثائقنا جاءت من حقل تاريخى يمتد منذ القرن الرابع عشر حتى القرن العشرين ويشمل كل البلاد الإسلامية . ومهما كان التغيير قليلاً خلال القرون، فإنه يوجد تباين جد عظيم. لذا سنحاول أن نعطى صورة شاملة مع ملاحظة الفروق الأساسية تبعاً للمحل والزمن

يرأس الطائفة الشيخ[1] ينتخبه الأساتذة من بين رجال الحرفة، وبعد انتخابه يكون حاكم الطائفة الأوحد ويجمع وظائف رئيس وأمين صندوق وكاتب ، وهو (أى الشيخ) موجود فى جميع الطوائف الإسلامية وفى بعض الطوائف كطوائف مصر فى القرن السادس عشر الموصوفة فى (مخطوط كوتا) ونجد له مساعداً ، وهو النقيب ، ومنزلته بالنسبة إلى الشيخ « كمنزلة الوزير من السلطان » ويظهر أنه كان رئيس التنفيذ لأوامر الشيخ ومنظم الحفلات أيضاً . ويليه الاختيارية أو المسنون بين أساتذة الطائفة يتعاونون معه على إدارة الطائفة؛ ثم يأتى الأساتذة ويدعى الواحد عادة أسطى أو أحياناً (معلم) ، وهم يشكلون القسم الرئيسي من الطائفة . أما الصانع فلا يلعب دوراً هاماً فى الطوائف الإسلامية ولا وجود له عادة إذ يكون الانتقال من مبتدىء إلى أسطى رأساً؛ ويوجد فى بعض النقابات دور وسط يدعى العامل فى خلاله خلفه أو خليفة، وهذا الدور وقتى فقط

وتتم الحلقة بالمبتدىء وفى أغلب الحالات لا يحدد وقت للدور الذى يقضيه المبتدىء ولا يطلب منه صنع شىء مثالى متقن جداً Masterpiece بالمعنى المفهوم عند الأوربيين . فزمن الدراسة والأجازة بعين من قبل الأستاذ الذى يشتغل معه المبتدىء . وتختلف النصوص فى مسألة تطبيق النظام فيقول البعض إن الشيخ يطبقه أو ينفذه منفرداً . ويقول آخرون إنه يفعل ذلك بمساعدة الاختيارية

هناك نوع آخر من التنظيم فى الطوائف الأناضولية المتأخرة وصفه كوردلفسكى إذ يطلب هنا من المبتدىء قضاء ألف يوم ويوم فى هذا الدور . كما أنه لا يأخذ فى هذا الدور أى أجر ولكن له الحق أن يحصل على بعض المكافأة (البقشيش) ووليمة عند انتمائه

(١) يعرف الشيخ أيضا باسم (أمين) وعريف ، وأحيانا تقبب إذا اختفت رتبة النقيب كرتبة مستقلة يسمى الشيخ فى تركيا ــ شيخ ، أسطا ــ وفى أسيا الوسطى يسمى ــ آق صقال ــ

إلى الطائفة ، ويدربه أستاذ فى شئون حرفته كما يحصل على دراسة أخلاقية فى الزاوية فى نفس الوقت . وإذا تلف الحراق لأستاذ معين، فعليه أن يبقى مع أستاذه ولن يقبله أستاذ آخر كتلميذ له. وفى نهاية هذا الدور يطلب منه عمل شىء مثالى متقن فى صناعته ثم يجاز فى حفلة عامة من قبل — الأصناف باشى — أى شيخ الحرفة ، وال — يكيت باشارى — أى الاختيارية ، وبعد هذا يصبح خلفه[1] ويجب عليه أن يبقى ستة أشهر على الأقل وبعد انتهائها يستطيع أن يمارس حرفته كأستاذ — وفى هذا يساعده أستاذه وغيره من الأساتذة من الوجهة المالية عادة .

ترأس الطائفة هيئة تدعى لونجة هيئتى Lonca Heyeti تتشكل من شيوخها أى الرجال المسنين[2] ويكون القرار النهائى للرئيس الذى ينتخب عادة لتقواه . وتجتمع الهيئة مرة كل أسبوعين ، وينفذ الأوامر والعقوبات الجاويش أوال — أوش باشى — ويحرص الطوائف كثيراً على كيفية نوع المنتج ويعاقب صاحب الإنتاج الردىء بطرده مؤقتاً من الطائفة تشترى المواد الأولية تحت رقابة الشيخ، ولأصحاب الحرفة الفقراء حق الأقدمية فى هذا على الأغنياء ، ويعقد اجتماع عام سنوياً .

يمكننا أن نلاحظ الدور الهام الذى يلعبه اللباس الخاص لرجال الطوائف فى حياتها . فميزة الفتوة الظاهرة فى أوائل عهدها كانت السروال ، ويتكلم الكتاب العرب عن لبس السروال كعلامة للانتماء إلى الفتوة ؛ ثم أصبحت هذه العادة متبعة فى الطوائف ، وصارت حفلة الانتماء إلى عهد قريب تتصف بارتداء بعض الملابس: السروال والشد والحزام والبشتمال أو الصدرية . وهى الأهم من بين الملابس .

لدينا وصفان مفصلان للطوائف الإسلامية يستحقان الفحص كل على انفراد أولها وصف فى رحلة سائح تركى يدعى — أوليا جلبى — الذى صنف قائمة مفصلة بأسماء الطوائف وهيئات أصحاب الحرف فى أوائل القرن السابع عشر بناء على طلب السلطان ، وفى هذا المؤلف نجد لأول مرة وصفاً كاملاً لنظام الطوائف فى مدينة إسلامية . يبدأ أوليا جلبى وصفه للطوائف بفتوت نامة — كتاب الفتوة — الذى يظهر أنه نص منقول يحتوى على الأساطير والتعاليم الاعتيادية وكذا وصفه حفلة الانتماء

(١) راجع Gordlevsky - R. E. I. 1934, p. 81 off.

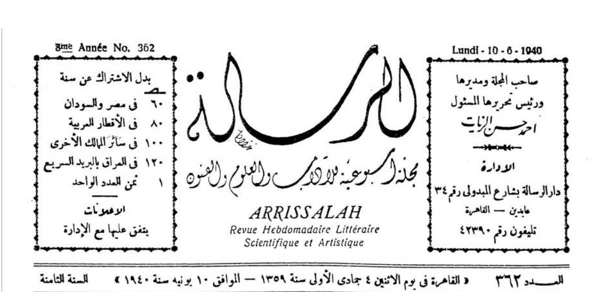
(٢) يقول كوردلفسكى نظراً لقلة رأس المال كان يمد دور الحلقة إلى أكثر من ستة أشهر .

إلى الطائفة . أما تركيب الطائفة الذى يحويه الوصف فهو الشيخ (الرئيس) والنقيب (نائب الرئيس) والجاويش والأوسطة (الأستاذ) ثم الشاكرد (المبتدئ) . أما الصانع أو العامل البسيط فيلاحظ أنه لا ذكر له

ثم يعدد (أوليا جلبى) جميع الطوائف الموجودة تحت سلطة الملالى (جمع مُلاّ) الاربعة فى القسطنطينية مع عدد حوانيتهم ورجالهم وشيوخهم إذ ينقسمون إلى سبع وخمسين شعبة تحتوى بمجموعها على ألف طائفة وطائفة تحوى الشعبة الأولى طوائف الجواويش (ج جاويش) وموظفى البوليس والغلمان والانكشارية الجدد (أكم أو غلان) والزبالين والقندلفتية (حفار القبور — الحانوتية —) وعمال المناجم ، والبلطجية والأحـداث Minors والنقاش . وفى المعارض العامة يتقدم هؤلاء فى السير لأن من واجبهم تنظيم أو تسوية الطرق التى يسير عليها الآخرون بعدهم . أما الشعبة الثانيـة فهى تحت إدارة رئيس الطوائف Asas - Basi الذى عين لهذا المنصب من قبل السلطان محمد الفاتح (١٤٥١م – ١٤٨١م) وهى تحتوى على أصناف العسس والشرطة والجلادين ، واللصوص ، وقطاع الطرق ، وزمرة المسخرين (فى العسكرية أو البحرية) وسواس الخيل ، وممرنى الخيل ، والحرس . ويبين أوليا أن أصناف اللصوص ، وقطاع الطرق ، وكذلك المفلسون وغيرهم من وضيعى الأخلاق لا يظهرون فى المعارض العامة ، ولا يعرفون شخصياً ، ولـكنهم يدفعون خوة (ضريبة) لرئيسى الشرطة المدعوَّين (أسس باشى) (وصو باشى)

لا يتسع المجال هنا للنظر فى وصفه للسبع والخمسين شعبة ، ولنلاحظ كمبدأ عام أن كل شعبة يرأسها شخص واحد ، وهو عادة رأس الطائفة المهم فى الشعبة ووظيفته أرفع وظيفة . أما الشعب القليلة التى يترأسها موظفون كـ (صوباشى) ، فهى مستثنيات ، والسبب هو كون الحرف نفسها رسمية أو شبه رسمية ، وتمثل الطوائف عرضاً تاماً على هيئة استعراض مرة واحدة سنوياً ، ووصفه أوليا كما يأتى : « يبدأ الموكب الملكى بالسير وقت الفجر ويستمر الموكب فى السير طول النهار ، حتى الغروب ، يفتتح الاستعراض من قبل الجاووش لر المسمى الاى جاويش وينا هز الموكب ألفى رجل والـكل مدجج بالسلاح كأنه بحر زاخر ، ومن العادة المتبعة أن كل طائفة عند الوصول قرب الحديقة الجديدة أمام تذكار خسرو باشا تعرض نفسها أمام بيت قاضى استانبول لأنه صاحب السلطة لتفتيش جميع الأوزان والمقاييس ، وجميع الطوائف . وهناك قاعدة أخرى وهى أن كلا من هذه الطوائف يهدى إلى قاضى القسطنطينية البضائع التى عرضوها فى معرض عام . ولكن بعض هذه البضائع كان يخفى بهذه المناسبة ، وبعد تقديم الاحترام لأول حاكم فى العاصمة تنسحب الطوائف رؤساؤها إلى محلاتها المختلفة وينصرف كل إلى بيته . وتتوقف كل تجارة وحرفة فى القسطنطينية بمناسبة هذا الاستعراض لمدة ثلاثة أيام يملأها ضجيج وفوضى الاستعراض » . ويظهر أن أهمية عظمى كانت تعلق على نظام الأقدمية (فى السير) . ويعطى أوليا جلبى وصفاً ممتعاً لنزاع من هذا القبيل (أى حول حق الأقدمية) بين القصابين وبين تجار مصر ، ثم صدر الحكم النهائى من قبل السلطان فى جانب التجار (يتبع)

عبد العزيز الدورى



8me Année No. 362

Lundi - 10 - 6 - 1940

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

ص

٦٠ في مصر والسودان

٨٠ في الأقطار العربية

١٠٠ في سائر الممالك الأخرى

١٢٠ في العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع المبدولي رقم ٣٤

عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٣٦٢ « القاهرة في يوم الاثنين ٤ جمادى الأولى سنة ١٣٥٩ — الموافق ١٠ يونيه سنة ١٩٤٠ » السنة الثامنة

النقابات الإسلامية (*)

للأستاذ برنارد لويس

ترجمة الأستاذ عبد العزيز الدروى

[تتمة]

يأتى مصدرنا الثانى من النصف الثانى للقرن التاسع عشر . ففى سنة ١٨٨٤ م قدم إلياس قدسى (وهو سورى) إلى مؤتمر المستشرقين الدولى نتائج بحثه فى السنة الفائتة عن طوائف « دمشق [1] » ويجب اعتبار هذا البحث مصدراً تاريخياً وإن كان حديث العهد، لأن معظم ما يصفه قد اختفى دون أن يدرس ثانية

يخبرنا قدسى أنه كان على رأس جميع طوائف المدينة (شيخ المشايخ) وكان هـذا المنصب وراثياً فى عائلة خاصة ، ولا يمكن انتخابه أو إقالته أو استبداله بشخص آخر . وكان دوره قابلاً للانتهاء إما بوفاته أو باستقالته (ويكون ذلك أحياناً بتأثير السلطان) وقد كان فى زمن أقدم الحاكم الأعلى فى جميع شؤون الطوائف . ويحدث المحدثون أن سلطته (أى شيخ المشايخ) كانت فى زمن ما واسعة جداً تمتد حتى إلى حق الحكم بالموت . وعلى كل فقـد احتفظ لزمن طويل بحق سجن أو تقييد رجال الحرفة أو ضربهم بالسياط . وكان يعيش على وقف وراثى . وقد أنقصت سلطاته إلى حد كبير بعد « التنظيمات » أى الإصلاحات العثمانية فى القرن التاسع عشر وأصبح مركزه رتبة شرف فقط . وكان شيخ المشايخ فى زمن بحث قدسى عالماً كبيراً ولكنه يجهل تماماً جميع الحرف . وكان عمله الوحيد المصادقة على تعيين رؤساء الطوائف الذين يعينهم الأساتذة

ويظهر أن رتبة شيخ المشايخ كانت مختصة بدمشق فقط إذ لا يوجد لها أثر فى أية مدينة أخرى . لم يكن باستطاعة شيخ المشايخ حضور جميع اجتماعات الطوائف شخصياً . لذلك كان يرسل موظفاً خاصاً يسمى (النقيب) فى حالة وجود اجتماع لترقية بعض الأعضاء إلى صناع أو أساتذة أو لأى شىء يخص المجموع. وعند ما كانت وظيفة شيخ المشايخ مهمة وذات نفوذ كان له عدة نقباء . لـكن قدسى وجد نقيباً واحداً (زمن بحثه) له معرفة بالحرف وبشؤون الطوائف وهى الصفة التى كانت تنقص الشيخ

ويلى شيخ المشايخ — شيخ الحرفة — ينتخبه أكبر أعضاء النقابة من بين أبرع ماهرى الحرفة ، ولم تكن تتبع أية قاعدة فى الأولوية سواء أكان ذلك من جهة السن أم طول زمن العضوية فقد يكون الشيخ ، وقد كان كذلك فى كثير من الحالات ، شاباً حدثاً ، بل كان يطلب فيه أن يكون فاضل الأخلاق ، عاملاً ماهراً محترماً بين رجال الطائفة قادراً على تمثيلهم أمام السلطان .

كان منصب الشيخ وراثياً فى بعض الطوائف ، ولـكنه خاضع دائماً لمصادقة المنتخبين . ويعين الشيخ لـكبر سنه ، ويمكن استبداله إن وجد أنه غير جدير بمنصبه . وكانت واجباته : دعوة الاجتماعات وترأسها ؛ وملاحظة المحافظة على مستوى الطائفة ، ومعاقبة مخالفى قواعد الحرفة ، وتنظيم شئون العمل (وكان هذا يفوض إلى الأساتذة) ؛ والأجازة إلى درجة صانع أو أستاذ ، وأن يكون رأس الطائفة المسئول فى كل العلاقات مع الحكومة . أما فيما يخص انتخاب الشيخ فقد لاحظ قدسى أنه لم يكن ينتخب بالأكثرية ، فعنـد خلو كرسى الرئاسة

(*) راجع الأعداد : ٣٠٠ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ من الرسالة

(١) راجع بحث إلياس قدسى عن النقابات فى دمشق فى أبحاث مؤتمر المستشرقين الدولى فى جلسته السادسة ١٨٨٤ ص ٣ وما يليها ، والبحث بالعربية .

كيف قلت فى نعته ؟ كان مجنوناً تنشىء له أعصابه المريضة الهالكة معانيها التى لا حقيقة لها فى حقيقتها هى ... ! ! نعم ، ربما كان ذلك صحيحاً من بعض وجوهه ، ولكنى على يقين من أنك لا تكاد تعرف وجه الحق فى تأويل هذا الوصف . لا بأس ومع ذلك ، فأى هذا الناس ليس مجنوناً على الحقيقة من بعض نواحيه ؟ إنك لو جهدت فتتبعت تاريخ الإنسانية كله لم يخلص لك من أصحاب العقل الكامل إلا أفذاذ قلائل . ومع ذلك ، فليس أحد من هؤلاء الأفذاذ قد نجا من قذف الناس إياه بالجنون . ألا تخبِّرنى أى الأنبياء — وهم فضائل الإنسانية الكاملة — برىء أن يقول فيه أهله وعشيرته : « إن هو إلا رجل به جِنة » أو « ساحر » أو « مجنون » ؟

إن من أعظم حقائق الحياة الدنيا أن العقل لا يستطيع أن يدرك حقيقة العقل، أى أنه لا يستطيع أن يدرك حقيقة نفسه ! و ...

وصدَع السكونَ صوت صفير الغارة الجوية ، فانتزع صاحبي ثم قال :

— أليس هذا هو صوت جنون سكان العالم ؟ أليس كذلك ؟

« لها تتمة » محمود محمد شاكر

يجتمع الأساتذة المتقدمون ، ويتناقشون في المرشحين القابلين للانتخاب فإن لم يتفقوا على شيء يعين شيخ المشـايخ شيخاً على كل حال . ثم يثبت شيخ المشايخ الشيخ الجديد في حفلة خاصة .

كان للشيخ مساعد يسمى شاويش ، وعلاقته بالشيخ كعلاقة النقيب بشيخ المشايخ مع هذا الفرق الهام وهو أنه بينما كان النقيب يعين بواسطة شيخ المشايخ كان الشاويش لا يعين إلا بموافقة المنتجين . ولم تكن للشاويش سلطة خاصة . بل كان ممثلاً ، وضابط تنفيذ لشيخ الحرفة . ويخبرنا قدسي أن منصب شاويش قديم جداً ولـكن الاسم حديث

يشتغل المبتدئ من غير أجرة لمدة سنوات حتى يصل إلى سن الرجولة ، وتصبح له مهارة في الحرفة (على كل كان البعض ينال أجراً أسبوعيا زهيداً حسب ما يستحق) . ثم يصبح بعد ذلك صانعاً ، فإذا لم يتقن حرفته ويتقدم إلى أستاذ بقيت أجوره واطئة ومنع من الاشتغال لحسابه الخاص

كان الصناع في زمن قدسي يشكلون هيكل الطائفة ، وكانوا أكثرية عظيمة . ويخبرنا أنهم كانوا حافظي سر الطائفة وناقلي أسرارها إلى ما يليهم

ثم يمضي قدسي في وصف مطول لحفلات الإجازة . يدخل في ذلك اليمين بالمحافظة على أسرار الطائفة والصنع الجيد ، وكذا الرسوم والقوانين المتقنة التي تنظم كل مظهر من مظاهر حياة رجال الطائفة مع كل العلامات والإشارات المعمول بها . وأخيراً يشير قدسي إلى التشابه بين هـذه الحركة وبين الماسونية الحرة في أوربا متسائلاً عما إذا كانت هناك علاقة بين الاثنين[١]

يكفي ذكر بعض الملاحظات عن الطوائف المصرية حيال هذا الوقت لنتبين بعض الاختلاف ، فشيخ المشايخ غير معروف هنا . وإنما نجد الطوائف تحت رئيس البوليس ... كان لرئيس الطائفة (ويدعى هنا شيخ الطائفة) سلطة نظارة العمال وتسوية الخلافات فيما يتعلق بمهنهم ومعاقبة المخطئين[٢] وكان يدعو مجلساً من المختارين

(١) بهذه المناسبة لا نجد مانعا من ذكر علاقة غريبة بين الماسونية الحرة والنقابات الاسلامية . ففي أوائل القرن التاسع عشر ادعى بعض الفرنسيين في سوريا بأنهم اكتشفوا شبهاً بين رسوم الماسونية الحرة وبين رسوم الدروز ، ولما كان الدروز من أصل إسماعيلي وتأثير الاسماعيلية على النقابات الاسلامية عظيم كما ذكرنا نجد العلاقة ذات أهمية ، بينما يعتبر (فون همر) نظام النقابات الأوربية مشتقا من نظام النقابات الاسلامية

(٢) ص ١٥ ينكر ملاحظ آخر لنقابات القاهرة وجود هذا الشرط لاحظ Martin Les Bagares du Caire, Paris, 1910

(نواب رئيس الطائفة) عند الضروريات يشكل محكمة قضاء لرجال الطائفة . ولم تكن توجد درجة صانع ، بل كان المبتدئ عنـد إجازته يرفع إلى منزل أسطي أو أستاذ رأساً . وكان يطلب منه صنع شيء نموذجي

ويهمنا بصورة خاصة معرفة أنه كان في طوائف القاهرة نوع من أنواع التأمين ضد البطالة والمرض يتعاون في ذلك جميع الأعضاء

لم تستطع كل هذه التشكيلات التي دامت دون تغير تقريباً حتى القرن التاسع عشر ، وأحياناً حتى القرن العشرين مقاومة هزة الفتح الأوربي ، ففي كل محاولة في البلاد الإسلامية أخذت طرق الإنتاج القديمة تفسح المجال لطرق جديدة ، وهكذا بدأت الطوائف تنحل . وتحولت هذه التشكيلات في أغلب الأحيان إلى اتحادات تجارية Sindicats من النوع الأوربي كما اشتركت بعض نقابات تونسية وسورية ، ومن الهند الصينية الهولندية في اتحادات العمال الدولية ، وهناك نقابات أخرى في دور انتقالي

بقي علينا أن نذكر ناحية غريبة من حياة الطوائف الإسلامية (أي ما يعرف بالطوائف الوضيعة)[١] ، فمن أزمان متقدمة نجد في البلاد الإسلامية طوائف منظمة كاملة في مراسيمها ونظمها وتقاليدها من نوع آخر من الحرف كاللصوص وقطاع الطرق فكانت (لبني ساسان) أو (نهابي القاهرة) المنظمين سطوة عظيمة لمدة طويلة . وفي دور الفوضى في عصر الخليفة العباسي المقتفي ١١٠٦ – ١١٣٦ م سيطرت طوائف اللصوص في بغداد على هذه المدينة[٢] وهذه الطوائف التي لم تكن لها دون شك أية علاقة بطوائف الصناع الحقيقية ساعدت على حط سمعة هذه الطوائف ؛ وكانت يتخذها أعداء الطوائف وسائل للتهجم عليها

ما هي النتائج العامة التي تستخلص من هذا العرض للطوائف الإسلامية ؟ يظهر لي أننا نستطيع أن نستخلص أربع خصائص تميز تنظيمات النقابات الإسلامية من تنظيمات النقابات الأوربية كما يلي :

أولاً : على العكس من النقابات الأوربية التي ظهرت لخدمة عامة معترف بها ولها امتيازاتها وتدار من قبل السلطات العامة للأمير أو البلدية أو الملك نشأت النقابات الإسلامية من تلقاء

(١) يلاحظ المسعودي وجود نقابات لصوص في بغـداد ٩٥٩ م ، أنظر مروج الذهب طبعة باريس ١٨٩١ ج ٨ ص ١٨٩

(٢) ابن خلدون باريس ج ٣ ص ١٥٣ ، أنظر تلبيس إبليس لابن الجوزي طبعة القاهرة ١٧٤٠ هجرية ص ٤١٥ وما بعدها . قال لي البروفسور Coornaet بأن مؤسسات من هذا القبيل ليست خاصة بالاسلام لوجود نقابات مشابهة لها في فرنسا في القسم الأخير من القرون الوسطى

نفسها ، من الشعب ، وتكونت لا إجابة لحاجة الدولة ، بل إجابة لحاجات كتل العمال أنفسهم ، كما أن النقابات الإسلامية اتخذت ، خلا فترة قصيرة ، إما عداوة مكشوفة للدولة ، وإما عدم ثقة . وقوبل ذلك بالمثل من قبل السلطات العامة سياسية أو دينية. ويظهر مدى هذا الشعور ضد السلطات الحاكمة من بروزه المفاجئ في القرن العشرين في الدور الهام الذي لعبته النقابات في الثورة الإيرانية ، ومن التطور السريع للنقابات الإسلامية إلى كتلة ثورية في الهند الصينية . وفي الرابطة القوية بين هذه النقابات وبين الشيوعية الأوربية[1] . ولا ينقص قيمة هذا الاستنتاج منح بعض الأمراء السنيين وضعاً مقيداً للنقابات للحصول على تأييدها كما لا ينفي وجود خلافات في بعض الأحيان بين الحكام الأوربيين والنقابات كون هذه المؤسسات أميرية

ثانياً : تنتج الخاصة الثانية لحياة النقابات الإسلامية أولا مما ذكرناه الآن، وثانياً من حالة طرق الإنتاج التي لم تتغير في الأراضي الإسلامية منذ القرن الثاني عشر حتى القرن التاسع عشر . فلا يوجد في تاريخ النقابات الإسلامية ما يماثل الازدهار العظيم في النقابات الأوربية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، الذي انتهى بانقسام هذه النقابات إلى سادة وصناع : (طبقتين مختلفتين ومتعاديتين) . وفي ارتفاع السادة السياسي والاقتصادي العظيم ، وفي تنظيم نقابات خاصة للصناع كسلاح في نضال الطبقات العنيف الذي نتج[2] . أما في الإسلام، فقد بقي الأستاذ والسيد والصانع والمبتدئ طبقة واحدة في المجتمع على اتصال شخصي قريب فرتبة الصانع وهي مؤقتة وانتقالية دائماً ، وفي أكثر الأحيان

(١) أنظر Revue du monde Musulman lviii, lii, li ولاحظ الأستاذ ماسينيون أن النقابات في فارس تحتفظ بروح انتقاد خاصة ضد السلطة الحاكمة

(٢) يوجد استثناء لذلك في أناضوليا في القرنين الثالث والرابع عشر فهنا نجد قسما من الأساتذة في جمعيات الأخوة (كما لاحظ كوبرولو وتشنر) ظهر أنهم تطوروا إلى نوع من الرأسماليين يتمتعون بنفوذ اقتصادي واجتماعي . وهذا الاتجاه يعطي شيئا يوازي التطور البلدي في أوربا ، ولكنها على كل حال كانت محدودة الاتساع ولم تتطور إلى درجة التصادم بين العمال والأساتذة ج . وهي خاصة بأناضوليا حيث خلقت قوة النفوذ البيزنطي والهجرة التركية ظروفا خاصة ، وحتى هنا (أناضوليا) قضى على هذه الحركة حالما تقوى مركز السلالة العثمانية لذا فلا شيء ، فالشيء الموقت المحلي لا يفسد صحة المبدأ العام بينما يعتبر — (تشنر) — حركة الأخوة كحركة الطبقة المتوسطة صاحبة رأس المال بدل أن يعتبر ظهور طبقة متوسطة من بين النقابات ، ويضم اتحاد الفتوة والنقابات مدة قرون بعد ذلك

غير موجودة[1] ، لم تتطور أبداً إلى منزلة اجتماعية دون أمل في الارتقاء إلى رتبة أستاذ . فالنقابة الإسلامية لخلوها من التفريق الاجتماعي الداخلي[2] الذي يقسم النقابة الأوربية ، حافظت على خاصتها التي انطبعت بها عند ما ظهرت في القرنين العاشر والحادي عشر ، وهي المساواة بين أفرادها كطبقة في المجتمع في شكلها الخاص كثورة العمال ضد ارتفاع الرأسمالية الاقتصادية والتجارية عندئذ.

ثالثاً — والميزة الثالثة في الطوائف الاسلامية : هي كونها تضم أفراداً من مختلف الطوائف ؛ فبينما أبعدت الطوائف الأوربية من صفوفها حتى المسيحيين المختلفي المذاهب ، نجد الطوائف الاسلامية مفتوحة لليهودي والمسيحي والمسلم على السواء ؛ بينما نجد بعض الطوائف الاسلامية تسودها الأغلبية الغير مسلمة

رابعاً — وختاماً يجب أن نلاحظ أهمية الحياة الداخلية الروحية في النقابات الاسلامية؛ فعلى العكس من الطوائف الأوربية لم تكن النقابة الإسلامية تشكيلاً مهنياً فقط ، فمنذ أن كانت النقابة تشكل جزءاً من نظام الدعاية الاسماعيلية حتى الوقت الحاضر احتفظت هذه النقابات دائماً بمثلها المتأصلة فيها قوانينها الأخلاقية والأدبية التي كانت تدرس لكل المبتدئين في نفس الوقت الذي تعلم فيه الحرفة .

عبد العزيز الدوري

(الرسالة) : عالج الأستاذ برنارد موضوع الطوائف الاسلامية علاجاً حسناً ، ولكن ضعف المترجم في اللغة العربية وجهله ببعض المصطلحات التاريخية أصابا المقال بشيء من التفكك والغموض .

(١) بالرغم من أن قدسي يقول أن الصانع يشكل هيكل النقابة تجب ملاحظة أن قدسي شاهد متأخر كتب بعد أن طرأ تغير كبير على النقابة . أما (أوليا) و (صدق) — صدق كاتب عن النقابات في القاهرة — فلا يذكران هذا المنصب

(٢) لاحظ Billioud من خصائص النقابة الاقطاعية المحتكرة في فرنسا فهنا يشكل الأساتذة صنفا إقطاعيا وراثيا يعادي كل العناصر الجديدة الغريبة من صنفه. قارن هذا بنظر الأساتذة المرشحين للأستاذية في النقابات الاسلامية